سنيّة صالح

حمروش

القصة الفائزة بالجائزة الثالثة في « مسابقة حوار للقصة القصيرة، ١٩٦٥ ». (انظر التعليق على الصفحة ٣٣).

حمروش صبي يعيش مع رجل اسمه العم كسرى ، في مزرعة تحيط بها اشجار الزيزفون من كل جانب . ولكن من اين جاء، ومتى حط رحاله فيها ؟ سؤال لم يجرؤ على طرحه ابدا. الا انه كثيرا ما تساءل عما اذا كان قد نبت في المزرعة كبعض نباتاتها ، او نقف من بيضة ما ، وحتى لا يضنيه التساؤل سلم بانه لا بد وان يكون قد اتى من انسان ما ، والا لما كان شبيها بالعم كسرى .

لماذا كان العم كسرى يضربه ؟ لم يفهم ابدا . نادرا ما رأى الثور ينطح العجل الذي ولد تلك السنة ، ولا رأى الديك ينقر فراخ الدجاجة الحمراء . وتعلم مع مرور الايام ان البشر يختلفون عن الحيوانات طالما انهم يتكلمون ويسيرون منتصبين ويضربون صغار نوعهم . هكذا كان حمروش يكبر وتكبر العصي التي يُضرب بها . بينما تزداد عينا العم كسرى ضيقا وعمقا تحت حاجبيه الكثيفين .

اشياء كثيرة طال الزمن قبل ان يفهمها حمروش. كان اذا رأى جديا يقفز، يحس بشيء غريب يصعد في صدره ويملأ حلقه، فيقفز هو ايضا مع الجدي ويندفع من حلقه ما احتشد فيه من صراخ وبهجة، ولكن سرعان ما يقذفه سيده بحجر او اي شيء آخر بمتناول يديه. ويصرخ : « تضحك ، تلعب ، ستلعب العصا على جلدك » . لم يكن يضرب الجدي الذي يقفز ، بل لم يكن يضرب الاشجار والخراف . يلعب ! ما اشهى ان يلعب . لكن لعب العصا كان يخيفه ، فيكتفي بان يختلس النظر الى الطيور وهي تلعب في الفضاء ، او تقفز فوق الاغصان .

واذا كان السيد يبدو من فوق تلك الهضاب البعيدة كالذئب، فبأي حجم اذاً كان حمروش الصغير يبدو ؟ كتلة تراب او خروف صغير يتحرك على العشب. وعندما يبدو في مثل هذه الحالة . انما يكون زاحفا على ركبتيه تحت الضربات الموجعة في وسط هذا القفر ، دون ان

يستطيع مجابهة الظلم الا بالحكاك ومسح الدموع باطرافه المرتعشة .

كان حمروش يجهل امورا كثيرة : تصرف سيده ، العالم خارج المزرعة ، المدينة . او بالاحرى لم يكن متأكدا من شيء . حتى ملامح وجهه ولون بشرته لم يكونا من الامور المفروغ منها بعد : اهو اشقر ام اسمر ، عريض الجبهة ام ضيقها ، لان مرآته الوحيدة في ذلك القفر البشري هي قاع البئر او مياه السواقي . ومن هنا تنبع ذكرياته : من الساقية ، من الصخور ، من الخريف ، حيث كل شيء يتبدل حسب طبيعة الفصول — الا سيده .

وفي يوم من ايام الشتاء المشرقة ، كان يستلقي على اكوام التبن قرب الحظيرة . يطارده شعور ما ، شعور غامض ينبض في اعماق قلبه . شعور بالرعب من ذكرياته التي تصر على ان تحيا معه حتى آخر العمر . وبينما كان يتململ في جلسته غمره فيض من الاحلام . ولم يعد يشعر باطراف القش وهي تخزه من ثقوب ثوبه . وتمنى لو ان له رفيقا على كومة اخرى من هذا التبن ، يبثه شجونه . ولذلك كثيرا ما كان ينظر الى الجبال الجرداء والطرق الممتدة عبر الافق البعيد . وكأنه ينتظر احدا ما . وما من قادم . وهكذا امضى حياته مع رفيقه الوحيد الذي لا يبادله اي حديث — لا لان رفيقه هذا متكبر ، بل لانه حمار . ولذلك فقد كانت علاقتهما المفروضة عليهما فرضا ، هي من الغموض والمتانة بحيث لم تكن قابلة للانقطاع ، رغم كل ما يلقاه كلاهما من عذاب وضنك ، وهذا الشعور لم يكن ليوفر لهما فرصة صغيرة ولو كفرصة الغذاء للتمتع بحصتهما المشتركة من الطعام والعدالة .

وفي الحقيقة ان مثل هذه المشاعر المبهمة بالضعة والخذلان لم تكن ، لكثرتها ، لتثير في نفسه الفزع الدائم بقدر ما يثيره ذلك الصوت المنبعث يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة ، من الغرف ، من الحظيرة ، من الحقل ، من كل مكان وهو يصرخ في طبلة الاذن الصغيرة : « حمروش هات الصحون » . « حمروش خذ الصحون » . « حمروش حطمت الصحون » . « هيا تناول عقابك ايها الابله » . وكان سيده بارعا في انزال العقاب ، وسياطه تلبي دائما رغبة السيد . كانت تتبدل حسب الفصول والمواسم : قضيب من رمان ، قضيب من توت ، قضيب من زعرور ، وكان لكل سوط طعمه الخاص على الجلد . وتهاوى حمروش فوق التراب مرتخيا ، متصلبا تحت الضربات القاسية ، حاضنا رأسه بين راحتيه الصغيرتين ، منكمشا على نفسه تحت تأثير ذكرياته المرة . وتذكر كيف كان الحمار الصغير يحثو على الارض من شدة الضرب . ثم لا يلبث ان يقف محركا ذيله لاستجماع القوى ومتابعة سحب الغراف . لقد كان الغراف من اختصاصه . وكان سعيدا بهذا الاختصاص لو لم تكن الاعمال الاضافية التي كان يقوم بها تحتاج من الجهد اكثر مما يحتاجه سحب مائة غراف واكثر . ولذلك يصيخ السمع دائما لتلبية الاوامر الطارئة ، بحيث ما ان يسمع صوت السيد

حتى تنتصب اذناه كقرنين حادين. وها هو الصقيع يملأ عينيه فجأة بالدموع. فالشتاء يكاد يمضي بكل مواسمه الخيرة وقدماه لا تزالان بلا حذاء. فنهض مسرعا وقد علق القش برأسه وثيابه ليعيد الماشية الى حظيرتها قبل الليل. فها هي الغيوم تتشرب حمرة الغروب وتمضي.

لم يكن من عادة حمروش الارق في ليالي الشتاء. ولم يكن الليل قصيرا. لقد عدّ النجوم من طاقة المخزن مئات المرات. وبين المرة والمرة كانت امواج الذكريات تجرفه بعيدا عن السماء. ان ذكرياته في هذه المزرعة لا يمكن ان تنسى. وتذكر يوم فوجيء بسيده يصطحب معه في احدى الامسيات امرأة مسنة تتأبط صرتها. لان الفكرة التي كونها عنه، هي ان سيده لم يكن ممن يحبون الناس، والنساء خاصة. الا انه كان سعيدا بهذه المفاجأة، التي اتاحت له الفرصة كي يعاشر انسانا آخر غير سيده الظالم، ورفيقه الفائق الغباء. وكم فجع بصمتها ايما فاجعة، وهو الذي هيأ نفسه ساعات وساعات للرد على اية اسئلة تنهمر عليه. ولكنها كانت تعامله كحيوان صغير وديع. تخفي له الطعام خلف طية ثوبها الواسع. وتمنى لو انها ام له. كانت تنظف له ثيابه وتبكي من اجله. وكثيرا ما كان يصادفها تشتم وتهدر بلغتها الخاصة وهي منهمكة باعمالها. وغمر وجهه بالقش واوشك على البكاء. تمنى لو تعود.

قبل مغيب الشمس بلحظات تصبح المزرعة كالمقبرة. كل شيء فيها يستطيل ويتمدد على الارض: ظلال الاشجار، والحظيرة، وحافة البئر. وكان كسرى، على غير عادته، مستلقيا على السرير يدخن ويسعل ويتمتم. بينما جلس حمروش وحيدا على حافة البئر متأملا ظله الذي يكاد يلامس باب الحظيرة. كل شيء هادىء ومستسلم ومنهك، ما عدا الحمار، فهو ما زال يضرب بذيله على قائمتيه الخلفيتين وما بينهما، وينخر بانفه من وقت لآخر. لقد ضُرب ضربا مبرحا ذلك اليوم على عنقه وظهره وعلى عقوره القديمة المتيبسة حتى انبثق الدم وتجمد على الشعر الاغبر القصير، ومع ان صديقه حمروش غسلها اكثر من مرة الا انها تورمت وانتفخت كما لو انها مليئة بالهواء. وعندما جره من رسنه الى الحوض لم يبدُ على الحمار انه راغب في ابتلاع اي شيء: ماء او دواء او كل ما من شأنه ان يجعله حيوانا طموحا وراغبا في الحياة، بينما كانت عيناه تشردان بعيدا في الطرق الممتدة عبر الافق.

كانت الشمس قد غابت واصبح الافق بلون الدم، عندما ترك حمروش حماره قرب الحوض ومضى بحثا عن بعض الاعشاب الشافية لعقوره. يقطف هذه ويشم تلك، دون ان يهتدي الى عشبة واحدة. والحنى يقتلع عشبة تذوقها ثم بصق. مر عصفور بالقرب منه، ارتفع ثم انخفض في طيرانه، ففتن عقله برشاقته. ليته عصفور مثله، لكان طار ورأى ما

وراء التلال، حيث يذهب سيده احيانا ويختفي وراءها ويرجع عند العصر باشياء جديدة. كم مرة توقع ان يرجع سيده حاملا له حذاء جديدا او عتيقا. ولولا الاشواك وحجارة الصوان المدببة لما كان الامر هاما لهذه الدرجة. وتطلع نحو السماء، واحس بارتياح عميق وهو يتأمل الغيوم الصغيرة تركض كالماشية عبر السماء، يتقدمها راعٍ صغير له عينان حزينتان. كانت اشجار الحور ترتفع عاليا. لو انه يصعد شجرة حور ويختفي في قمتها فلا تطاله قضبان العم كسرى؛ فكر في ذلك مرارا. لكن ماذا يفعل فيما لو قطع سيده الشجرة؟ تنهد. وتذكر الحمار. ناداه: «حمروش. حمروش». كذا اسماه العم كسرى، نكاية به. وركض ينظر بين عليق الساقية، ربما عاد الى الزريبة. ورجع راكضا ليتأكد من ذلك، ولكن لم يجد شيئا. فانتابه القلق على الحمار، والفزع من سيده وسيد الحمار. فعاد يبحث عنه بين اشجار المزرعة وما وراءها. اين ذهب؟ اخذ يمشي مبطئا، مسرعا، ينادي الحمار باصوات الرعب الكامن في قلبه. لقد تعثر ونهض. تنصت ليسمع وقع حوافره او نهيقه او خشخشة يحدثها في النبات. فلم يسمع غير اصوات الليل الزاحف فوق التلال. واحس برعدة عندما وجد نفسه قد ابتعد كثيرا. لم يعد يميز الاشياء من بعيد. كلما رأى شيئا ما على الارض عدا نحوه بسرعة. لعله شبح حمروش. ولكن دون جدوى. وتذكر انه لا يصلح لشيء، كما قال سيده اكثر من مرة: «الجدي، الدجاجة، افضل منك».

واندفع الصبي نحو التلال مسرعا، لو انه ينتعل حذاء ما لما غرزت الاشواك في قدميه. وانبثق الدم من خدوش صغيرة وكثيرة من ساقيه وفخذيه. ركض وركض، لكن التلال ظلت تبدو بعيدة مع آخر اصوات الكراهية المنبعثة من اعماقه. فهل هرب الحمار خفية مانحا رفيقه الى الابد حصته من ذلك العذاب؟ ليته هو الآخر يهرب. فالجحيم افضل من هذه المزرعة.

واخذت اشجار السنديان تزداد كثافة، بحيث لم يعد يميز اي طريق من خلالها. تعثر وسقط. نهض وتهاوى. وخفق قلبه بسرعة في جميع زوايا صدره. ما هذا؟ تراجع، وانتظر. فلم ير شيئا. كانت اذناه جاهزتين لالتقاط ادق الاصوات. واستدارت عيناه رعبا عندما سمع همهمة قريبة وكأنها انبعثت من بين قدميه. ما هوية هذا الحيوان؟ تنصت، فسمعه ثانية يأتي من جهة اليمين. فركض الى الجهة المعاكسة. الظلام يتكاثف وحمروش يركض. وانتفض قلبه مرة اخرى. وكان صوت الدماء يضج عاليا عاليا في اذنيه. لم يعد يفكر في غير الهرب. ما اوسع الظلام، لا حدود له، لا طرق، لا سياج، لا شيء. في المزرعة كان يعرف كيف يسير. هناك الحظيرة، هناك المخزن، هنالك البئر. والتفت نحو المزرعة فرأى شيئا يتقد ويلمع. فانتصب شعر رأسه. لا بد انه الضبع. هذه نهايتك يا

حمروش . آه ، نار سيده ولا جنة هذه البراري الغامضة والمحيطة به كالانياب . ما اعظم سيده لو تفقده ؛ ربما يفعل . كان سيده على حق عندمـا كان يضربه ان لم يعدّ الخراف . أتراه يعدّ دوابه الليلة فلا يجده ؟ على الاقل سيتفقد الحمار .

كان السيد قد نادى بالفعل عدة مرات، ثم نهض ليقضي حاجة شخصية خلف الجدار ، عندما اكتشف ان حمروش ليس في المخزن . لقد كان فراشه قذرا وقصيرا لا يتسع لجدي. وفكر باعطائه مزيدا من قطع اللباد. كما فكر بشراء حذاء له عند مرور اول بائع متجول، فالغلام قد شب عن الطوق وهو ما زال يعامله كالماعز. وشعر كأن نسمة خفيفة مرت بقلبه كالحجر . ولكن عندما اكتشف ان الحمار غير موجود ايضا في زريبته صرخ بملء صوته وهو يبحث خلف الجدران : « اين انتما ايها الحمروشان اللعينان ؟ »

وكان احد الحمروشين لا يملـك الصوت والجرأة كي يردّ على سيده . المسافة بعيدة ، والصرخة لا بد وان تضل طريقها في الظلام . ترى لو كان سيده في موقفه هذا ، هل كان يشعر بالرعب والفزع ؟ طبعا لا . ان الوحوش سوف تلوي اعناقها وتولي الادبار. ان سيده سيد حقيقي . لقد اعتاد على وجهه وصوته وسعاله ، واصبحت جزءا من حياته . ولربمـا يعرفها اكثر واكثر ، وخاصة فيما يتعلق بالغضب والبطش، عندما يكتشف امر ضياعه. رفع حمروش ذراعه سريعا يخبىء وجهه، واحس كأن الجبال البعيدة قبور شاهقة تتحرك وتوشك ان تطلق شياطينها في كل اتجاه ، وان الوحوش سوف تنقض عليه من كل جانب ، وما هو شبح احدها يتقدم ويصرخ .

وعندما لف السيد عباءته الفارسية حول الجسد النحيل المهدم في ذلـك القفر ، شعر حمروش بانه غارق في بحر من الآباء والامهات ، وصرخ السيد وهما على مشارف المزرعة : « اذاً هرب الحمار ؟ »

« نعم ، ولكنه سوف يندم يا سيدي » .